اللسانيات والبلاغة

في البداية يجدر بنا تقديم تعريف للبلاغة،وأهم أبحاثها ومباحثها،وبعدها نتطرق إلى آليات الدرس البلاغي، لنصل في الأخير إلى المقارنة البسيطة بين ما تحمله اللسانيات وما تتبناه البلاغة من زاويتي نظر الاتفاق والاختلاف .

المحور الأول:تعريف البلاغة

لغة: البلاغة في اللغة تعني الوصول والانتهاء،يقال بلغ الشيء يبلغ بلوغا وبلاغا وصل وانتهى ومنه قول أبي قيس بن الأسلت السلمي:

قالت ولم تقصد لقيل الخنا[1] مهلا فقد أبلغت أسماعي

ويقال رجل بليغ وبَلغ وبِلغ حسن الكلام فصيحه، يبلغ بعبارة لسانه كنه ما في قلبه[2]

إذا فكلمة البلاغة على إطلاقها تعني الانتهاء إلى أعلى درجات الشيء،حتى لا يكون بعده شيء أحسن ،سواء أكان هذا الانتهاء في أمور مادية أو أمور معنوية

[1] الخنا:الفحش في الكلام

[2] ابن منظور،لسان العرب ،تح:عبد الله علي الكبير وآخرون،دار المعارف ،القاهرة،مصر،مادة "بلغ "ج1ص 346

وإذا قيدنا البلاغة بصفة العربية كنا قد حددنا المجال الذي سنتكلم فيه،إذ سنصب جام اهتمامنا على ما يتعلق بالكلام العربي،لنبحث فيه عن الطرق الكفيلة به حتى يصل إلى منتهاه ويؤدي معناه،.

ونحن سنقر بداية أن هذه الطرق عديدة ومتنوعة، وكل منها يشكل رافدا من روافدها،واجتماعها مجملة يمكن أن يشكل في الأخير أبلغ معانيها.

ثانيا:تعريف البلاغة اصطلاحا:

لقد أورد الجاحظ في كتابه البيان والتبيين العديد من تعاريف البلاغة التي شكلت فيما بعد لبنات هذا الصرح ومنها :

1-تعريف عمرو بن عبيبد(144هـ) بقوله "تخير اللفظ في حسن الإفهام"[1]

يشير هذا التعريف إلى أمرين: الأول اختيار اللفظ،والثاني الإفهام ،وهما أمران مترابطان ،بل ينبغي أن يخضع فيهما الأمر الأول للثاني.

وإذا أخذنا بميزان هذا التعريف كان علينا أن نصنف الكلام البليغ وفق مستويين:

المستوى الأول متعلق بالسامع ومدى فهمه لكلام المتكلم.

المستوى الثاني متعلق بالمتكلم ومدى اختياره الألفاظ التي تؤدي غايته في عملية الإفهام تلك.

[1] الجاحظ ، البيان والتبيين ،مكتبة الخانجي،القاهرة،ط7(1418هـ،1998م) ج 1ص114

ويمكن توضيح ذلك بالشكل الآتي:

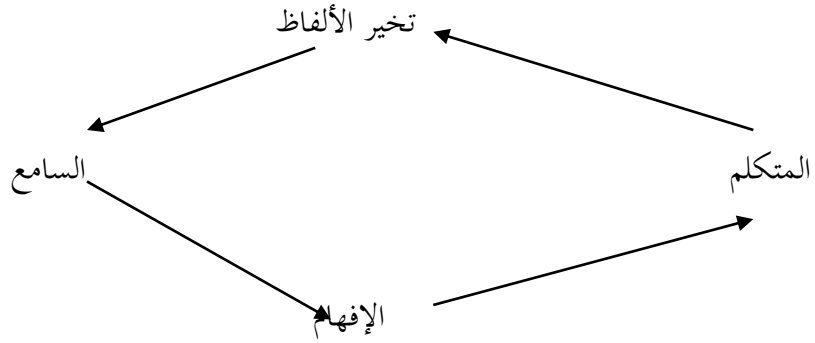

وإذا تحقق هذان الشرطان كنا قد حكمنا عن الكلام وفق هذا التعريف بأنه كلام بليغ.

2- تعريف ابن المقفع حيث يقول:"البلاغة اسم لمعان تجري في أمور كثيرة،فمنها ما يكون في السكوت ومنها ما يكون في الاستماع ومنها ما يكون في الاحتجاج ومنها ما يكون جوابا ومنها ما يكون ابتداء ومنها ما يكون شعرا ومنها ما يكون سجعا ومنها ما يكون خطبا ومنها ما يكون رسائل،فعامة ما يكون من هذه الأبواب الوحي فيها والإشارة إلى المعنى والإيجاز هو البلاغة"[1]

لو حاولنا أن نمحص هذا التعريف فإننا سنجد الآتي:

البلاغة في السكوت:وهنا يتبادر إلى الذهن أننا نتكلم عن بلاغة الكلام فكيف يمكن للسكوت أن يكون بلاغة؟

[1] الجاحظ ، البيان والتبيين ج1 ص115،116

والإجابة على هذا الأمر بسيطة،فالمقصود بالسكوت ليس معناه أن يكون الإنسان صائما عن الكلام ونطلق عليه في الأخير أنه بليغ،بل المقصود بالسكوت أثناء عملية الكلام في لحظات معينة يفرضها سياق الكلام،ولهذا قالت العرب "السكوت عن الأحمق جوابه" كما أن "السكوت علامة الرضا".

أما بلاغة الاستماع فمعنى هذا أن يختار اللحظات التي يتطلبها الاستماع،فيفهم المعنى ويدرك المغزى ليتسنى له الرد ويتاح أمامه الجواب ولهذا قالت العرب "حسن الكلام من حسن الاستماع"

وأما أن تكون البلاغة في الاحتجاج،فهذا أمر ليس بالمتاح أمام الجميع إذ لا يقدر عليه إلا من أوتي من علم المناظرة وسوق الكلام باعا يمكنه من الرد والجواب في المقام الذي يتطلبه ذلك الأمر

وأما أن تكون البلاغة جوابا،فهذا يعني اختيار الجواب المناسب في اللحظة المناسبة، ومن هنا كان جواب الحكيم أحد فصول البلاغة العربية[1]

وأما أن تكون البلاغة شعرا أو خطبا أو رسائل،فهذه صنوف في الكلام اعتادت العرب أن يبلغ بها عن أغراضها،و لكل صنف منها مقام خاص يتطلبه .

وأما قول ابن المقفع:" فعامة ما يكون من هذه الأبواب الوحي فيها والإشارة إلى المعنى والإيجاز هو البلاغة" فيشير إلى ميزان البلاغة عنده وهو أمران:

[1] المقصود بجواب الحكيم.هو إجابة السائل بأكثر مما يسأل عنه لأن حاجته لا تتم إلا من خلال هذه الزيادة.

الأول هو الإشارة إلى المعنى .

والثاني الإيجاز بالقدر الذي يحتاجه ذلك المعنى.

وإذا تحقق هذان الأمران كان الإنسان وفق هذا التعريف بليغا.

ومن خلال تعريف ابن المقفع نستنتج أنه قد ركز على جانبين:الأول عقلي يتمظهر في السكوت والاستماع والإشارة، والآخر إجرائي مرتبط بالآداء الكلامي، يتمظهر في الاحتجاج والجواب والخطب والشعر.

وورد تعريف البلاغة في المعجم الوسيط الصادر عن مجمع اللغة العربية ما مفاده"البلاغة حسن البيان وقوة التأثير[1]

أما الرماني فيعرف البلاغة بقوله:إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ2

إن الرماني يضع لميزان البلاغة أمرين:الأول وصول المعنى إلى المخاطب(المتلقي)

والثاني أن يختار له اللفظ الأنسب والأحسن.

ويعرفها الخطيب القزويني بقوله: مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته[1]

---

[1] شوقي ضيف وآخرون،المعجم الوسيط ،مكتبةالشروق الدولية،ط4(1425هـ، 2004م) ، ص70

[2] الرماني،النكت في إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل ص75،76

يحتوي كلام القزويني على ثلاث عتبات لغوية يجب الوقوف عندها وتحليلها،إذ يعد تعريفه هذا من أشمل التعريفات لعلم البلاغة،وهذه العتبات هي :الكلام،الحال،والفصاحة .

فالكلام يقتضي متكلما ومستمعا ،أو متكلما ومخاطبا أو بعبارة أخرى باثا ومتلقيا.

الحال وهو قسمان:إما لغوي؛ فمقام التنكيير ليس مقام التعريف مثلا.

أو مقامي؛ إذ مقام الحزن ليس كمقام الفرح.

أما الفصاحة فهي ترتبط بأمرين:

أولا بالمتكلم وبطريقة آدائه.

الثاني بالكلام وطريقة بنائه.

وقبل تفصيل هذه النقاط يجدر بنا وضع مخطط نجمع فيه أطراف العملية البلاغية،انطلاقا من هذا التعريف

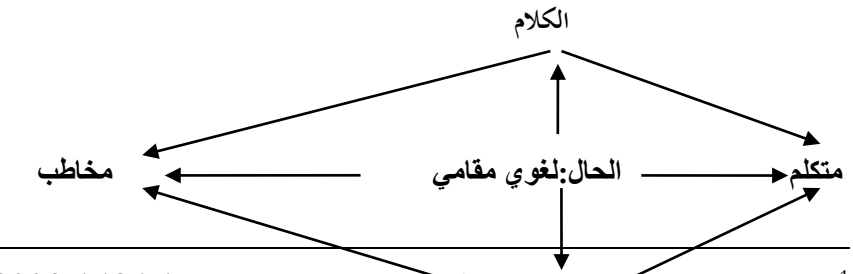

[1] القزويني :الخطيب ، الإيضاح ، دار الكتب العلمية،بيروت، لبنان ط1(1424،2003) ص20

الفصاحة

المحور الثاني: المباحث البلاغية: لقد استقر أمر البلاغة العربية على المباحث التالية:

أ- علم المعاني:

المعاني :لغة :جمع معنى ، والمعنى هو الشيء المقصود.

اصطلاحاً :هو تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة،وما يتصل بها من الاستحسان وغيره،ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره"[1]

ويعرفه الخطيب القزويني بقوله:"هو علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال،مع وفائه بغرض بلاغي يفهم ضمنا من السياق، وما يحيط به من القرائن.أو هو علم يبحث في الجملة بحيث تأتي معبرة عن المعنى المقصود...وأحوال اللفظ العربي تارة تكون أحوالا لمفرد وتارة تكون أحوالا لجملة،وعلم المعاني يتألف من المباحث التالية:الخبر والإنشاء،أحوال الإسناد الخبري، أحوال متعلقات الفعل،القصر،الفصل والوصل، والمساواة والإيجاز والإطناب."[2]

---

[1] السكاكي، مفتاح العلوم ص161

[2] القزويني، الإيضاح ص4

ب- علم البيان:

البيانُ فِي الُّلغَةِ: الظهور والوضوح والإفصاح، وما تبين به الشيء من الدلالة وغيرها؛ تقول بان الشيء بيانا: اتّضح، فهو بيّن، والجمع: أبْيناء، والبيان: الفصاحة واللَّسَن، وكلام بيّن: فصيح، وفلان أبْين من فلان، أفصح وأوضح كلاماً منه والبيان: الفصاحة واللَّسَن1،

و ووردت كلمة البيان بدلالاتها اللغوية في القرآن الكريم ،ومنها قوله تعالى: "هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ " [1]

وقوله تعالى: "الرَّحْمَنُ. عَلَّمَ الْقُرْآنَ. خَلَقَ الإِنسَانَ. عَلَّمَهُ الْبَيَانَ" [2]

اصطلاحا:

يعرفه الجاحظ بقوله:"هو اسم جامع لكل شيء كشف لك عن قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير؛ حتى يُفضَى السامع إلى حقيقته، لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع؛ إنما هو: الفهم والإفهام؛ فبأي شيء بلغت الإفهام، وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع"[3].

[1] سورة آل عمران138

[2] سورة الرحمان 1

[3] الجاحظ،البيان والتبيين، ج1ص76

وقد عرَّفه الخطيب القزويني بقوله: "علم يُعرَف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة من تشبيه واستعارة ومجاز مرسل وكناية"[1]

ج- علم البديع: (البديع) لغة: هو من بَدَع وأبدع، أي: أوجده لا على مثال سابق.

واصطلاحاً: هو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام.

وإذا نظرنا إلى هذه المباحث الثلاثة وجدناها تبحث في قضايا الفهم والإفهام وفق مستويات ثلاثة

-المستوى الأول:صحة الكلام ودقة الدلالة، وهو ما يبحث فيه علم المعاني ويكون ذلك في مباحث التقديم والتأخير، والحذف والذكر، والفصل والوصل، وغيرها من المباحث التي تهدف جميعها إلى ضرورة تقيد المتكلم بمجموعة من الضوابط حتى يكتب لكلامه النجاح، فيحدث الاتصال ويتم التفاعل، ويكون الإنجاز.

والملاحظ على هذه المباحث أن أغلبها متعلق بالجملة،مع وجود بعض المباحث فوق جملية، كالفصل والوصل مثلا، وهذه الملاحظة قد تكون محل قضية في المباحث اللاحقة

[1] القزويني،الإيضاح ص 5

-المستوى الثاني:صحة الكلام وتعدد الدلالة؛حيث يتاح للمتكلم مجموعة من الخيارات التبليغية للتعبير عن المعنى الواحد،وهذه الخيارات التبليغية ليست من باب الترف اللغوي، أو الاستمتاع الكلامي بقدر ما لها من وظائف تسهم ليس في إنجاح العملية التواصلية فحسب، بل تتعداها إلى تحقيق أغراض قد لا يعرفها إلا المتكلم ذاته.

-المستوى الثالث:تجميل الكلام؛وهو متعلق ببعض المباحث التي تسهم في تحسين الكلام لفظا أو معنى.

المحور الثالث-العلاقة بين اللسانيات والبلاغة

قبل التطرق إلى العلاقة بين اللسانيات والبلاغة يجدر بنا أن نميز بين ثلاث مراحل في البلاغة العربية:

-المرحلة الأولي: مرحلة ما قبل السكاكي:وميزة هذه المرحلة اعتماد الوصف كمنهج في البحث عن بلاغة الكلام، ورغم طول هذه الفترة وما شابها من غموض في المفاهيم في بعض الأحيان، وما انتابها من تعدد في المصطلحات، إلا أنها عرفت تطورا برز خصوصا عند عبد القاهر الجرجاني في نظريته المعروفة بـ"نظرية النظم" والتي تعتبر ذروة الدرس البلاغي

-المرحلة الثانية:مرحلة السكاكي وما بعده حتى ظهور الدرس اللغوي الحديث أو ما يعرف باللسانيات

وهذه المرحلة عرفت تقنين الظاهرة البلاغية،وخرجنا من الظاهرة إلى القاعدة،ومعنى هذا الخروج من دائرة الوصف إلى دائرة المعيارية،فأصبحت البلاغة مجموعة من القواعد التي يتم حفظها في متون، وتعليمها للمتمدرسين بغية التمرين والتطبيق،وفي هذه المرحلة تم غلق باب الاجتهاد البلاغي بمفتاح السكاكي الذي قعد للظواهر البلاغية

-المرحلة الثالثة:مرحلة مابعد الدرس اللغوي الحديث،وهنا احتكت البلاغة بعلوم اللغة، وحاولت الاستفادة منها في عديد الجوانب المنهجية والإجرائية.

وعند هذا الحد نكون قد وصلنا إلى ضرورة التفريق بين البلاغة واللسانيات من خلال ما يلي:

أوجه الاتفاق

- ✓ أن كلا منهما نشأ منبثقا من علم اللغة وارتبط به .
- ✓ أن مجالهما واحد وهو اللغة.

أوجه الاختلاف:

- ✓ إن البلاغة القديمة –بلاغة السكاكي-هي الشواهد المتفرقة والأمثلة المجتزأة، في حين تغلب على اللسانيات تصورات البنية والنسق والعلاقات

- ✓ البلاغة لم تتوقف عند حد الجملة كحد أقصى في دراستها للنصوص ، أما اللسانيات فقد توقفت عند حدود الجملة،في مراحلها الأولى على الأقل
- ✓ غاية البلاغة تعليمية، أماغاية اللسانيات فهي التشخيص والوصف للظواهر اللغوية بغية فهم اللغة. .

الأسلوبية والبلاغة

يرى كثيرون أن الأسلوبية هي الوريث الشرعي للبلاغة ،ولهذا ذهب العديد من الدارسين إلى محاولة تقديم توليفات فكرية، يمكن من خلالها البرهنة على هذه العلاقة، وتبيين هذه المكانة.

وقد كانت الدراسة التي قدمها هنريش بليث من أهم الدراسات في هذا المجال؛ حيث ألف كتابا عنونه" الأسلوبية والبلاغة".ولهذا وجب علينا التطرق إليه، والتعرف عليه، بغية فهم النموذج الذي قدمه ليكون بديلا منهجيا في الدراسة والتحليل.

يحاول هنربش بليث في البداية أن يبرز الوشائج القائمة بين البلاغة والأسلوبية، ولهذا عنون مشروعه بذلك، فالأسلوبية تتقلص أحيانا حتى لا تعدو